المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن والاربعين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٦ — الموافق ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤

حقيقة الحال في المانيا

يودُّ المرء ان يعرف حقيقة الحال في المانيا في هذا الوقت . اي هل الطعام ميسور لسكانها بعد ان سُدَّت في وجههم طرق البحر لانهُ ان كان قد قلَّ حتى اصبح غير كاف لمعيشتهم فلا بدَّ من ان يثوروا على حكومتهم لان الجوع كافر لا يصبر الناس عليهِ طويلاً وتكون نهاية هذه الحرب قد دنت

ولقد كثرت الاقاويل وتوفَّرت القرائن على ان الطعام قلَّ في المانيا حتى جعل الالمان المقيمون في اميركا يرسلون الى اقاربهم طروداً منهُ بالبريد وان علماء الالمان استنبطوا وسيلة لتحويل المواد غير الآكلة التي لا تؤكل الى مواد آكلة مغذية فيمزجون كبريتات الشادر بسكر البنجر ويعالجون المزيج على طريقة كيماوية تجعلهُ طعاماً مغذياً اي يجعلون النيتروجين الذي في كبريتات الشادر يتحد بالسكر فتصير منهُ مادة آكلة كاللحم تغتذي بها الخنازير وتصير لحماً في ابدانها . والحاجة تفتق الحيلة

وقد وقفنا الآن على رسالة رجل انكليزي كان معتقلاً في المانيا وأُطلق سبيلهُ حديثاً فوعى في ذاكرتهُ ما رآهُ وما سمعهُ وهو معتقل مما يستدلُّ منهُ على حال الالمان الآن من هذا القبيل . ويظهر لنا انهُ صادق وان استدلالهُ في محلهِ وعليهِ فيبعد جدًّا ان تطول هذه الحرب سنة اخرى الاَّ اذا حدثت حوادث ليست في الحسبان . اشتدت الطعام على المانيا وزادت عدد جيوشها او اوقعت الشقاق بين الحلفاء او اثارت عليهم شعوبهم . وهاك خلاصة هذه الرسالة

اننا نحن المعتقلين في رُهلبن قلما كنا نرى شيئاً نستدلُّ منهُ على احوال الحرب ولكننا كنا نرى اموراً كثيرة تدلُّ على احوال السكان وما آلت اليهِ بسبب الحرب . ولا شبهة

ان بعض ذلك كان يتسرَّب الى البلاد الانكليزية ممَّا ينشر في الجرائد الالمانية وتنقلهُ عنها جرائد المحايدين اما نحن فكنا نقرأ الجرائد الالمانية بالاضطراد وكنا اقدر من المقيمين في انكلترا على الفصل بين الغث والسمين منها فلم يكن في طاقة الجرائد الالمانية مثلاً ان تخدعنا بقولها ان مواسم سنة ١٩٠٥ اقبلت اقبالاً عظيماً لاننا رأينا القيظ امتدَّ من اواخر شهر مارس الى اوائل شهر يوليو ثم هطلت امطار غزيرة مصحوبة بالصواعق . رأينا ذلك بميوننا وسمعنا الحراس يشكون من انقطاع الامطار وضرر انقطاعها بالمزروعات . وكان بيننا اناس كثيرون على خبرة تامَّة بالزراعة فلم يخدعوا باقوال الجرائد . وعلمنا ان فش الحنطة قلَّ لانهم لم يعطونا قشًّا لفرشنا فحشوناها بنشارة الخشب . وسُئل رجل اميركي خبير عن مقدار النقص في المواسم فقال انهُ يختلف بين ولاية واخرى وان الولاية التي كان فيها لم يحصد الزارعون شيئًا من مزروعاتها

والذي يقرأ الجرائد الالمانية كلها من اولها الى آخرها كما كنا نفعل يستدلُّ منها اكثر ممَّا يستدلُّ من يقرأ بعض الاقتباسات منها لا سيما وانا كنا متصلين بالسكان . وقد افرج عن البعض منا ثم اعتُقلوا فاخبروا الذين كانوا لا يزالون معتقلين بما رأوهُ وسمعوهُ . وكان يصل الينا من وقت الى آخر اناس من الانكليز اعتُقلوا حديثًا وهم عارفون بما وقع تحت نظرهم في البلاد فيخبروننا بما يعلمونهُ . وكان بيننا رجال لهم زوجات المانيات كنَّ يكاتبنهم ويذكرن اموراً طفيفة لا يرى الرقيب بأسًا بالاغضاء عنها اولا يرى لها معنًى سياسيًّا وهي عندنا ذات معنى كبير . مثال ذلك ان يأتي كتاب الى رجل من زوجتهِ تقول لهُ فيهِ أخذ جارنا شرودر للجندية . والرجل يعلم ان شرودر هذا بدين سمين ثقيل الحركة يقضي ايامهُ في القهوات فيستدل من ذلك ان المانيا جنَّدت كل الذين يليقون للحرب وهي تجند الآن الذين لا يليقون لها ولا سيما اذا قالت زوجتهُ انهُ لم يخطر على بال شرودر انهُ يمكن ان يجنَّد

وعبارة واحدة مثل هذه في كتاب واحد لا يبنى عليها حكم لانها قد ترد على سبيل التهكُّم ولكن اذا تكرَّرت امثالها في مكاتيب عديدة لاناس كثيرين لم تفسَّر الاَّ بان الحكومة الالمانية استنزفت كل اللائقين للخدمة الحربيَّة واخذت تدعو غيرهم . فقد سمعت انها جندت رجلاً لا يستطيع ان يمشي ميلين وان رجلاً آخر فقئت عينهُ في الحرب فأُعيد الى فرقتهِ لتفقأ عينهُ الاخرى وجندت رجلاً حاسر البصر لا يرى على بعد خمسة امتار ولما اعتذر بقصر بصره قيل لهُ يمكنك اذاً ان تقف امام صفك لترى العدو

حينما نشبت الحرب منع الالمان من جعل خبزهم كلهُ من دقيق الحنطة وامرت

الحكومة بزجه بعشره الى خمسة من دقيق البطاطس فجعل الذين ضامهم مع المانيا يفتخرون بان قمحها يكفيها الى منتهى الحرب . وكان الخبز كثيراً في اول الامر وبقي كثيراً الى شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ حينما كان الالمان يتوقعون ان يقهروا الحلفاء ويبلدوا كالله . ثم تغيرت الحال في اواخر دسمبر وارتفع ثمن الخبز وصغرت ارغفتهُ وانحطَّ نوعهُ وصار صلباً قاسياً وزاد اسوداداً شهراً بعد شهر . ثم مُنع بيع خبز الحنطة لنا وصرنا نأكل الخبز الاسمر المصنوع من حبوب اخرى غير القمح . وفي اول الامر تعذر علينا هضم هذا الخبز ثم قيل لنا ان الحكومة ستقلل جرايتنا منهُ لانها لم تكن تأكلها كلها . الاَّ ان الجندي الذي اخبرنا بامر الحكومة قال ايضاً ان الحبوب امست قليلة في البلاد فلا بدَّ من الاقتصاد . وبعد قليل صار الخبز يوزع على البيوت في البلاد كلها بمقدار محدود حسب عدد الانفس . سمعت انكلترا بذلك سمعاً اما نحن فعرفناهُ بالخبر لا بالخبَر فان كل رجل منا كان يُعطى خُمس رغيف في اليوم اي بمقدار ما يعطاهُ النفس في كل البلاد الالمانية فان الرغيف الواحد كان يقسم على خمسة انفس وقشرتهُ صلبة لا تعمل بها الاَّ الاسنان القوية فصرنا نتضوَّر جوعاً

والجوع من جراء ذلك اصاب الفقراء دون الاغنياء لان الغني يستطيع ان يأكل مآكل كثيرة غير الخبز اما الفقراء فالخبز لهوام معيشتهم . وكان بعض الفقراء يأتون سجننا من وقت الى آخر مرسلين في بعض الشؤون فكان همهم الاكبر الوصول الى المطبخ والتهام ما فيهِ من فضلات الطعام . وذكرت الجرائد حينئذٍ ان في البلاد نباتات كثيرة يمكن اكلها والاغتذاء بها بدل الخبز . وقد رأيت مرةً امرأة ملأت خرجها من البقول البرية وعادت وهي تقول اخذوا اولادنا ورجالنا ليُقتلوا وتركونا نخرج الى الحقول ونأكل الحشيش

ورأيت بعض الجنود من حراسنا يفتشون في الكناسة عن فتات الخبز العفن الذي كنا نطرحهُ ويجمعونهُ ويأخذونهُ الى عيالهم . وقال لنا واحد منهم ذات يوم « ان الخبز يفضل عنكم لكثرة ما يأتيكم من البسكت من بلادكم فارجو ان لا تطرحوا ما يفيض عنكم منهُ بل تعطوني اياهُ لاوسلهُ الى بعض اصدقائي في سبندو فان النساء الفقيرات هناك يكدن يمتن جوعاً » هذا مع ان سبندو دار صنعة الحكومة وهي اصلح حالاً من غيرها

وكل ما قيل من ان المانيا لم تتأثر بالحصر البحري ولا اثَّر فيها هذا الحصر هذر وهذيان . فان الحصر البحري اثَّر فيها اشد تأثير فانهُ لم يبقَ فيها شيء من الاطعمة معتدل السعر الاَّ البطاطس والخضر . وقد كثرت الخضر في ايامنا لانهُ لم توجد علب من الصفيح لكبسها وحفظها الى غير وقتها اما الآن فلا بدَّ من ان تكون قد قلَّت كثيراً . وكثر

البطاطس في الفصل الذي يجني فيهِ اما قبل ذلك فكان ما يباع منهُ للاكل كالبطاطس الذي يطعم للخنازير

ثم ان اهتمام الحكومة الشديد بامر البطاطس كان من اكبر الادلة على شدَّة الضيقة فانها وضعت يدها على كل غلتهِ لكي تتحكم في بيعهِ للبلديات وهي تبيعهُ للسكان . واتفق ان بلدية برلين خزنت اصنافها في اقبية تحت سكة الحديد فدبَّ فيهِ الفساد حتى اضطرَّت اخيراً ان تنقلهُ الى الحقول سماداً للزروعات . وحدثَ مثل ذلك في اماكن اخرى خزن البطاطس فيها . واذا فقد الالمان البطاطس فماذا يقتاتون

وكانت الحكومة الالمانية قد امرت بيعنا بعض الاطعمة باثمان رخيصة بالنسبة الى ثمنها في البلاد لكي لا نعلم ما حدث من الغلاء فكنا نشتري رطل الزبدة الطبيعية بتسعة غروش وثمنهُ في برلين ١٢ غرشاً ورطل الزبدة الصناعية بستة غروش وثمنهُ لغيرنا ثمانية غروش

وبذل الالمان همهم في ابدال صنف بآخر فابدلوا البترول بالفنول وقالوا ان في نشارة الخشب مادة مغذية يجب استخراجها منها كيماوياً واستعمالها طعاماً . وبلغ ثمن الرطل (الليبرة) من لحم الخنزير ٥ اغرشاً وهو هزيل انحف لان الالمان كانوا يسمنون خنازيرهم باطعامها كسب جوز الهند وهذا بطل ورودهُ الى بلادهم الآن فلم يبقَ للخنازير طعام آخر تقتات بهِ . ثم ابطلوا تقديم لحم الخنزير للمستغلين وابدلوهُ ببعض انواع السمك . وجعلت الجرائد الالمانية تثني بمدح السمك طعاماً . وكان السمك يأتي الى المانيا من نروج بطريق اسوج ونحن نعلم كيف كان يأتي وبأية حالة لكن الالمان يكابرون ويكابرون الى ان لا يبقى عندهم شيء يأكلونهُ وقد يستحيل عليهم ان يضرُّوا شيئاً آخر

وكما نفدت مواد الطعام نفدت مواد الصناعة كالنحاس والنكل فاضطروا ان يصهروا ما عندهم من الادوات النحاسية ليصنعوا منها كبول قنابلهم وان يصهروا نقود النكل ليصبوا اغلفة خرطوشهم ومنعوا كل احد من ركوب اوتوموبيلهِ الاَّ اذا كان طبيباً لقلة الكاوتشوك واحضروا كل ما يستغني عنهُ السكان من اخرمة الصوف . واقفلت كل معامل النسيج والغزل الاَّ التي تعمل لاجل الجيش لقلة القطن والصوف . وغلا ثمن الجلد حتى صار ثمن الرطل (الليبرة) منهُ ٤٥ غرشاً

ولما أُطلق سبيلي رأيت في طريقي النساء في برلين يكنسنَ الشوارع ويسقنَ المركبات اقلة الرجال . ولما كنت معتقلاً كنت ارى النساء يمددن خطوط سكك الحديد حتى رسخ في ذهني وذهن رفاقي انهُ لم يبقَ من المانيا الاَّ النشور

وقد ثبت لنا ان ما اظهرهُ الالمان في اول الامر من العداء للانكليز كان ثورة غيظ اثارها في نفوسهم انوال جرائدهم وتعاليم مثل رقتنو وترتشكي . في اول الامر كان اخبار الذين يحرسون اسرى الحرب يقولون ان اولئك الاسرى مجرمون ويجب ان لا يطعموا الاَّ مرةً في النهار ويجب ان يكون طعامهم الخبز القفار لاغير . والجنود الذين كانوا يحرسوننا كانوا يعاملوننا بالفظاظة في اول الامر ثم تغيرت الحال رويداً رويداً لان غيظهم الاول كان اشد من ان يدوم « كالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكلهُ » ولاسيما بعد ان عاشروا الانكليز . قال لي احد الجنود انهُ أُقنع قبلاً بان الانكليز متوحشون كلهم فوجد بعد الاختبار ان اكثرهم على جانب من الادب والظرف

ولو اجاز الرقيب لمحرر جريدة برلنر تاجبلات ان يكتب ما يشاء لاطنب في مدح الانكليز فقد انشأ مقالات كثيرة قال فيها ان اعداء الالمان الحقيقيين هم الروس لا الانكليز لان الانكليز لا يريدون محق المانيا بل ان تبقى دولة قوية عزيزة الجانب لتصد تيار السلاف لكن الرقيب اوقفهُ قبلما اوغل في هذا الموضوع . غير انهُ بقي يلمح اليهِ بالاستعارات ويبيّن ان ما قيل عن سوء معاملة الاسرى الالمان في البلاد الانكليزية غير صحيح . واعترض على الاغنية المسماة « اغنية البغض » وقال انهُ لا يليق وضعها في كتب تعليم القراءة ولام ناظمها لوماً شديداً . والَّف بعضهم تاريخاً ذم فيهِ انكلترا فاضحى باللوم عليهِ وقال اننا ننتظر من اساتذتنا ان يمهدوا السبيل للصلح لا ان يزيدوا الاحقاد والضغائن

ولا يظهر لي ان المانيا كلها صارت من مذهب هذا المحرر بل لا يزال العتو والعنفوان شعار الجمهور في احاديثهم العمومية ولا يزالون يتوعدون و يتهددون قاصدين ان يثنوا الحماسة في نفوس سامعيهم و يقولون انهم لا يعتمدون سيوفهم حتى تغمس انكلترا التراب امامهم . ولكن غطرستهم الفارغة قلما تخفى على الناقد البصير . وكل ثورة من هذه الثورات ثورات العتو والتبجح صارت اقصر من التي قبلها . وكثيراً ما قال عقلاؤهم ان المعارك في روسيا لا تنتج لهم شيئاً ولو كان الفوز فيها لهم لان الفوز الحقيقي في الميدان الغربي وهذا الفوز لا يزال ابعد من البُعد

قال احد الاسرى لضابط صغير انهُ راهن على ان المانيا تخرج من هذه الحرب ظافرةً في ستة اشهر . فقال لهُ الضابط انك مجنون وحسبُ المانيا ان تخرج من الحرب في سنتين . وقال آخر على مسمع مني ان هذه الحرب ستزيد عدد الاشتراكيين في المانيا وان العمال فيها مجانين

ولا شبه عندي ان الآمال التي كانت تحيك في صدر الالماني في بداءة الحرب قد زالت الآن . ومن المحتمل انهُ لا يقدّر الفشل التام لبلاده ولكنهُ عدل عن تقدير الفوز لها وصار يحسب ان الخاتمة ستكون صلحاً شريفاً لا تغبن بهِ بلادهُ واعجلهُ افضلهُ . وان تأخير عقد الصلح سببهُ الدعاوي الفارغة التي يدّعيها محبو السيادة ومنعهم الجرائد من الخوض في طلب الصلح وتعيين شروطهِ

ولا يصدّق الالمان ما يقال عن المكرات التي ارتكبها جنودهم لا سيما وانهم قلما سمعوا عنها لان جرائدهم ممنوعة من الاشارة اليها واذا بلغهم شيء من اخبارها قالوا انها اقاصيص مختلقة او مبالغ فيها وان كل ما حدث انما هو من الاعمال الحربية الجائزة اي التي تكافأ العدو صاعاً بصاع مقابل ما يأتيهِ من المكرات ولذلك اذا ارادت الحكومة الالمانية ان تلجأ الى وسيلة من الوسائل المعني عنها في الحرب ادّعت اولاً ان اعداءها استعملوا هذه الوسيلة وجعلت الجرائد تنشر ذلك في طول البلاد وعرضها حتى اذا توسّلت هي بها لم يلمها شعبها بل قالت انها تكيل لاعدائها الصاع بالصاع . وقد اعتذرت عن اعمالها الاخرى بالخداع فقالت ان سكاربرو التي ضربتها براوجها وقتلت النساء والاطفال فيها هي قاعدة حربية وان مدينة لندن التي رمتها بلوثات تزيلين بالقنابل حصن حربي ويجب ان لا يقيم فيها السكان وان الباخرة لوزيتانيا طرّادٌ مسلّح . هذا ما ادّعتهُ الحكومة الالمانية تضليلاً لعامة الشعب ولذلك لا تبالي العامة الا بما يمسها فعلاً كالضيق المالي والجوع وفقد الاهل والاقارب او رجوعهم مثخنين بالجراح او مصابين باصابات لا شفاء لهم منها فقد بلغني ان في برلين وحدها عشرة آلاف من الجنود الذين فقدوا بصرهم في الحرب ويُرى ان تدبير عمل لهم يتعيشون بهِ في المستقبل من اكبر المشكلات

واهل النظر من الالمان يفكرون في حال البلاد المالية فالقيّمون لانهم يعلمون ان ما قيل عن نجاح قرض الحرب خداع في خداع فان الذين اكتتبوا بهِ هم من المورّدين للحكومة الذين يقبضون منها ورقاً ثمن ما يوردونهُ لها فردوا لها ورقها ومن الذين اودعوا في البنوك اسهماً وسندات لا قيمة لها والسكان يفكرون في مقدار الضرائب التي ستضرب عليهم بعد الحرب وتزعد فرائصهم لانهُ لم يبقَ لهم رجاء باخذ غرامة حربية